

٨- الْقِيَرْوَان

كانت الشمس تلقي بأشعتها الأولى على ابنتها البكر، لما خرجنا من تونس الحاضرة، فاستقبلنا الجو طرياً والسماء جذلة والأرض ريانة. ووصلنا القிரوان والنهر لم ينتصف بعد، فلم يدركنا قيظ. ودلفنا إلى الجامع الكبير نستطقه أخبار مدinetه، فلم يدخل ولم يكتم شيئاً. انه شاهد على مجد كان وأمل سيكون. وكان أول ما عرفناه أن القிரوان من صنع عقبة بن نافع. فهو الذي سار يفتح إفريقياً بأمر معاوية بن أبي سفيان عام ٤٩ [٦٦٩]، فاتخذ طريقه على الواحات متوجباً طريق الساحل ذات المسالح والمهابط البحري، وعقبة لا أسطول عنده. ولم يقف عقبة إلا في المغرب. وكان مما رأه عقبة إقامة مدينة للمسلمين في إفريقيا، فأنشأ القிரوان.

روى ابن عبد الحكم ان عقبة «لم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية ابن حدیج بناء قبله، فركب الناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم، وكان وادياً كثیر الشجر كثیر القطف، تأوي إليه السباع والوحش والهوام»^(١). ولما وقف عقبة على الموضع الذي تخيره لاختطاط القيروان، نادى «أيتها الحيات والسباع! نحن أصحاب رسول الله ﷺ، ارحلوا عنا إننا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه». فنظر الناس في ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل اجراتها والحيات تحمل أولادها، فأسلم كثیر من البربر. واحتضن عقبة موضع المسجد ودار الإمارة واحتضن الناس معه حولهما».

ولم يمض وقت طويلاً حتى اتسعت المدينة فبلغت مساحة مبانيها نحو سبعة آلاف متر مربع، وبلغت الدور نحوً من ثلاثة عشر ألفاً. وشاء أمرها شرقاً وغرباً، فكثر الهاطعون إليها اللاجئون إلى حماها المستظلون بأمرائها الأغالبة الذين اتخذوها عاصمة لما استقر بهم الأمر في إفريقيا أو المغرب الأدنى أواخر القرن الثاني (الثامن). فجددوا بناء الجامع ووسعوه وأقاموا فسقية الأغالبة بالقيروان «وهو حوض مستدير يبلغ قطره ١٢٨ متراً ويستند حائطه إلى ٤٨ سندًا داخلية وخارجية وتقوم في وسطه نواة اسطوانية الشكل محفوظة بأربعة أعمدة».

وكان للأغالبة فخر واعتزاز، يعبرون عنهم شعراً. فهذا أبو العباس يقول من قصيدة:

أنا الملك الذي اسمه وبنفسي
فأبلغ بالسمو بها السحابا
إذا نقبت عن كرمي ومجدي
وجدتني المصاصة واللبابا

وأمنحها الكرامة والثوابا
واغفر للمسيء اذا انابا
فاكسر بالعقاب لها العقابا
الى ان صرت ممتنعاً شبابا
وما اخشى بقومي ان أعبا
(٢) اذا ما صارت الدنيا خرابا

اطل عشيرتي بجناح عزي
وأصطنع الرجال واطبّيهم
واسمو بالخميس الى الاعادي
ابا ابن الحرب ربتي وليداً
لعمري ايكم ما ان عبت قومي
بنيت لهم مكارم باقييات

استمرت القيروان تنمو وتتسع حتى أصبحت دار العلم والمعرفة في افريقيا واستمرت على ذلك حتى خربتها الحملة الهمالية. وظهر في القرنين الرابع (العاشر) والخامس (الحادي عشر) استقلالها العلمي في جامعتها وبيت حكمتها وفقها وكتبها. قال عبد الواحد المراكشي يصف ما كانت عليه: «وكانت القиروان في قديم الزمان منذ الفتح الى ان خربتها الاعرب، دار العلم بالمغرب، اليها ينسب اكابر علمائه، واليها كانت رحلة اهله في طلب العلم. وقد ألف الناس في اخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتبًا مشهورة، ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطبّي وغيرهما من الكتب، فلما استولى عليها الخراب كما ذكرنا تفرق أهلها في كل وجه، فمنهم من قصد بلاد مصر، ومنهم من قصد صقلية والأندلس، وقصدت منهم طائفة عظيمة اقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس، فعقبهم بها الى اليوم»^(٣).

وهذا الجامع الذي كان مركز الحياة، قال ابن غانم وهو أحد شعراء القيروان في وصفه في ليلة احتفال:

جلوساً صموداً فهو أقر مجلس
هدایة ابصار وايناس انفس
فتبرهن لحظ الناظر المتفرس
تألق في داج من الليل حندس
جفون رنت منهن اعين نرجس
وفي حل من تحت خرز مورس
فتأتي بتشبيهه بديع مجانس
ومجلس تقوى يجلس الناس عنده
قناديله في وحشة الليل داجياً
يضيء بها صافي الزجاج كضوئها
كأن ثرياء نجوم تآلفت
كأن القناديل المداراة حولها
كحسناء زفت في حل مصوغة
تجول لطيفات الحجى في نعوتها

ونحن اذا نحاول التعرف الى مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية في القيروان ابان ازدهارها، اي عصر الصنهاجيين، وجدنا بين أيدينا الكثير مما خلفه مؤرخوها وشعراؤها وأدباؤها وزوارها. وهذا المقدسي الجغرافي يقول عنها إنها كانت مصرًا بهيأً عظيمًا «قد جمع اضداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم، مع علم كثير ورخص عجيب ... ولا أرفق من أهلها، ليس [بینهم] غير حنفي وماليكي مع الفة

بفقاهة وفصاحة وبيان
أبوابها وتنازع الخصمان
بدليل حق واضح البرهان
طلبًا لخير معرّس ومغافن
متبتلين بتل الرهبان^(١)

علماء ان ساءلتهم كشفوا العمى
وإذا الأمور استبهمت واستغلقت
حلوا غمامض كلّ أمر مشكل
هجروا المضاجع قانتين لربّهم
وإذا دجا الليل به يم رأيتهم

ومما يجدر ذكره ان ابن رشيق وابن شرف رحلا عن القيروان أواخر حياطهما، وقد كانوا متعاصرين. ذلك ان ابن رشيق بقي في خدمة تميم بن المعز الصنهاجي، لكنه رأى الأحوال تتجه من سيء الى أسوأ، فلم يعد يطيق البقاء في ظل دولة في طريق الانهيار، فهاجر الى صقلية، حيث وجد ان ابن شرف قد مل الاقامة في صقلية واعتمد الرحيل الى الاندلس. ورغم الى ابن رشيق أن يرافقه، لكن هذا كان يعرف أحوال ملوك الطوائف في الأندلس، فرفض وقال في ذلك بيته المشهورين:

ممـا يـزهدـني فـي أـرضـ أـنـدـلـس	أـسـمـاءـ مـعـتـضـدـ فـيـهاـ وـمـعـتمـدـ
(الـقـابـ مـمـلكـةـ فـيـ غـيـرـ مـوـضـعـهاـ كـالـهـرـ يـحـكـيـ اـنـفـاخـاـ صـوـلـةـ الأـسـدـ)	

وبقي في الجزيرة الى ان توفي سنة ٤٥٦ [١٠٦٤]. أما ابن شرف فرحل الى الأندلس وظل هناك الى ان توفي بإسبانيا سنة ٤٦٠ [١٠٦٨]. وقد كان موقفه من الحياة يتلخص في مذهبه الذي عبر عنه ببيتين من الشعر هما:

انـ تـرـمـكـ الفـرـيـةـ فـيـ مـفـشـرـ	قـدـ جـبـ الطـبـعـ عـلـىـ بـغـضـبـهـ
فـدـارـهـمـ مـاـ دـمـتـ فـيـ دـارـهـمـ	

ومما يروى عن ابن شرف انه تشوّق الى القيروان، فقال:
 فـأـرـاكـ رـؤـيـةـ باـحـثـ مـتـأـملـ
 كـيـفـ رـجـاعـ صـبـاـيـ بـعـدـ تـكـهـلـ
 هـيـهـاتـ تـذـهـبـ عـلـيـ بـتـعـلـلـ^(١١)
 يا قـيـروـانـ! وـدـدـتـ اـنـيـ طـائـرـ
 يـاـ لـوـ شـهـدـتـكـ إـذـ رـأـيـتـكـ فـيـ الـكـرـيـ
 لـاـ كـثـرـةـ الـاحـسـانـ تـسـيـ حـسـرـتـيـ
 ومـنـ تـشـوـقـ إـلـىـ القـيـرـوـانـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـونـ مـنـ أـهـلـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ (الـعـاشـرـ)ـ اـذـ
 قالـ:

يـهـفـ وـصـبـاـهـ بـهـ وـكـمـ بـدـرـ
 حـقـفـ يـكـادـ يـنـوـءـ بـالـخـصـرـ
 مـنـيـ مـكـانـ قـلـائـلـ النـحـرـ
 مـنـ غـيـرـ مـاـ طـيـبـ وـلـاـ عـطـرـ
 اـشـفـقـتـ مـنـ نـفـسـيـ الذـيـ يـسـرـيـ
 وـكـأـنـ قـلـبـيـ بـاـنـ عنـ صـدـريـ

يـاـ رـبـعـ كـمـ لـيـ فـيـكـ مـنـ غـصـنـ
 وـمـنـاسـبـ الـأـوـصـافـ اـنـقـلـهـ
 قـدـ طـالـمـاـ عـقـدـتـ قـلـائـلـهـ
 وـلـثـمـتـ صـدـراـ فـاحـ عـنـ بـرـهـ
 وـضـمـمـتـ اـنـفـاسـيـ عـلـيـهـ وـقـدـ
 وـكـأـنـ صـدـريـ لـاـ ضـلـوعـ لـهـ

اعطى عهود الله صفة من
لو استطيع سبحة من طرب
حتى أقبل جانبيك كما
وأفيض أجهانني لديك كما

(١٢) فاضت عليك وما بها تدري

وابن رشيق، وجه وصية إلى الشعراء والأدباء جاء فيها قوله: «هذا على أني
ذمنت إلى المحدثين انفسهم في أماكن في هذا الكتاب، وكشفت لهم عوارهم، ونعيت
لهم أشعارهم. وليس هذا جهلاً بالحق، ولا ميلاً إلى ثنيات الطرق، ولكن غضباً من
الجاهل المتعاطي والمتحامل الجافي، الذي إذا اعطي حقه تعاطى فوقه وادعى على
الناس الحسد»^(١٣).

وفد الهلاليون على افريقيا في اواسط القرن الخامس (الحادي عشر)، فاحتلواها
ودمروا مدنهما، وأتلفوا مظاهر العمارة فيها. وقد تألم ابن رشيق وهو في صقلية لما
اصاب القiroان على ايدي المحتلين، فقال من قصيدة:

حتى إذا سئموا من الارنان
ما جمّعوا من صامت وصوان
وطرائف وذخائر وأوان
من خوفهم ومصائب الألوان
وبكل أرملة وكل حسان
تسبي العقول بطرفها الفتان
قمر يلوح على قضيب البان
خرب المعاطن مظلم الأركان
لصلة خمس لا ولا لأذان
بعد الفلوجة بادة الأواثان
نعم البناء والمبتنى والبني
حسراتها أو ينقضي الملوان^(١٤)

يستصرخون فلا يفاث صريحهم
بادوا نفوسهم فلما أنفذوا
واستخلصوا من جوهر وملابس
خرجوا حفاة عائذين بربهم
هربوا بكل وليدة وفتيمة
وبكل بكر كالمهابة عزيزة
خدود مبتلة الوشاح كأنها
والمسجد المعمور جامع عقبة
قفر فما تفشاه بعد جماعة
بيت به عبود الله وبطلت
بيت بوحي الله كان بناؤه
أعظم بتلك مصيبة ما تجل

المواضيع

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ليدن، بريل، ١٩٢٠، ج ١، ص ١٩٦.

(٢) شريط، عبد الله، وكرو، أبو القاسم: شخصيات أدبية، تونس، المطبعة العصرية، ١٩٥٨، ص ٩٣.

(٣) كنون، عبد الله: عبد الواحد المراكشي، ص ٢٨.

(٤) المقدسي، ص ٢٢٥-٢٢٤.

- (٥) شخصيات أدبية، ص ٩٨.
- (٦) ابن خلدون: المقدمة، بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٦١، ص ٧٧٢-٧٧١.
- (٧) شخصيات أدبية، ص ٢١٠.
- (٨) نفس المكان، ص ١٧٥.
- (٩) ابن رشيق، الحسن بن علي: ديوان ابن رشيق القيرواني، بيروت، دار الثقافة، لا. ت. ص ٢٠٤.
- (١٠) شخصيات أدبية، ص ٢٠٢.
- (١١) نفس المكان، ص ٢١٣.
- (١٢) النيفر، محمد: عنوان الاريب بما في تونس من عالم واديب، تونس، المطبعة التونسية، ١٢٥٢، ج ١، ص ٤٨.
- (١٣) شخصيات أدبية، ص ٢٠٨.
- (١٤) ابن رشيق، ص ٢٠٤-٢٠٦.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة ، اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت ، الجزء الثالث عشر - مدن عربية